الناصريّة والنضال ضدّ الاستعمار

بقلم جمال الشرقاوي

سيسجل التاريخ دائما ان الناصرية كانت في مجال النضال ضد الامبريالية والاستعمار بالذات واحدا من ابرز التيارات الوطنية في هذا العصر .. ان لم تكن ابرزها على الاطلاق .

ذلك ان النضال ضد الاستعمار ، باشكاله وظلاله ، كان هو الخط الاساسي في نشاطها طوال حياة مؤسسها الزعيم الخالد جمال عبدالناصر على مسرح السياسة منذ ٢٣ يوليو ١٩٥٢ حتى وفاته في ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ .. وهو لا يزال الخط الاساسي للقيادة التي خلفته بعد وفاته » .

كما ان قيمتها ـ كتيار وطني ـ لا تنحصر فيما افرزته من مواقف عملية كان لها قيمة عظمى وتاثيرات واسعة وعميقة .. وانما ايضا فيما صدرت عنه من فلسفة خاصة ، وما اتسمت به من ملامح خصوصية ، جعلتها ـ بحق ـ تيارا اصيلا ، واضافة غنية الى التراث الثوري للانسانية كلها .

واذا كان الحكم قد صدر لصالح الناصرية من جماهير شعبنا وقوى الامة العربية الوطنية .. ومن كل القوى المناضلة من اجل الحرية والتقدم في العالم على اختلاف اتجاهاتها .. بما لا يترك مجالا للاشادة او التقدير .. فان اقصى ما يمكن لكاتب يتصدى لهذا الجانب من الناصرية ، هو ان يحاول ابراز الملامح الخاصة بتجربتها في النضال ضد الاستعمار ..

وهو امر يحتاج ـ لا يزال ـ للكثير .. لكنني سأحاوله بتركيز شديد ..

* * *

١ ـ من الكلمات الاولى التي قالها جمال عبدالناصر، نستطيع ان نتبين على الفور الارضية الفكرية للموقف الناصري من الاستعمار ، والمفهومات التي انطلق منها نضاله ضده :

* فالاستعمار هو العدو الرئيسي لشعبنا ، وهو السبب الاساسي من كل التخلف والمشكلات التي تعاني منها البلاد ..

* ولا خلاص لمصر ، او للعالم العربي ، الا بالتحرر الكامل من الاستعمار بكل صوره .. لانه هو في الحقيقة المتحكم في سياسة البلاد العربية ، وهو الذي « يضع لها المآزق ثم يحرمها من مواجهتها » وقد تجلى ذلك تماما في القضية الفلسطينية ابتداء من تسليم فلسطين للصهيونية، الى دفع الدول العربيه لحرب هزليه معها عام ١٩٤٨ .. والتحكم في السياسه العربية في كل بلد عربي في كل الاحوال ، بما يصيب العرب دائما بالخسران ـ « فلسفة الثورة » .

* ان الاستعمار قد لجأ ـ خاصة بعد ثورة ١٩١٩ في مصر ـ الى التخفي وراء لافتات وطنية مزيفة ، تتمثل في نظم حكم محلية ، وديمقراطية وهمية ، واحزاب رجعية .. اي تستر وراء حلفائه من الطبقات الرجعية من اقطاعيين وكبار رأسماليين طفيليين .. وعروش فاسدة . والسبيل الوحيد للقضاء على الاستعمار الان ـ قبيل وفي اعقاب الثورة عام ١٩٥٢ ـ لا يتأتى الا بضرب ركائزه الداخلية ، وطردها من مواقع السلطة ، ثم توجيه السلطة الوطنية بكل طاقاتها للنضال ضد الاستعمار ، الذي لا بد ان يقهر في النهاية طالما انه عزل دخليا وان الحركة الوطنية تخلصت من احتمالات الضرب من الخلف ..

« لقد وجدنا انه لا يمكن القضاء على الاستعمار الا بعد القضاء على اعوانه في الجبهة الداخلية ، وكانت لنا امثلة حدثت في الدول التي استطاعت ان تقضي على الاستعمار في بلادها ، فانها بدأت بالتخلص من اعوان المستعمر وتقوية جبهتها الداخلية لتستطيع ان تركز جهودها في اتجاه واحد ضد المحتل ..»

ـ من قصة الثورة ـ كتبها جمال عبدالناصر ونشرت في احدى الصحف الصباحية يوم ٢٢ يوليو سنة ٥٣

* والنضال ضد الاستعمار لا بد له ان ينطلق من موقف مبدئي الى جانب الحرية .. وليس من موقف

انتهازي او اناني يقوم على المساومة .. ولذلك فلا بد ان يكون الشعار واضحا : الحرية الكاملة غير المشروطة للوطن .. وفي نفس الوقت اتخاذ ذات الموقف بالنسبة للاخرين .

وفيما يتعلق بالحركة الوطنية المصرية ، فلقد كانت هناك مشكلة دائمة تسهم في افساد كل المحاولات التي تمت للوصول الى نتيجة بالنسبة لوجود الاحتلال الاجنبي ..

كانت بريطانيا تحتل مصر نفسها وتتحكم فيها بالكامل .. ومع ذلك ، فقد كان الساسة البرجوازيون في مصر يتصورون انهم شركاء لبريطانيا في السيادة على السودان . بل لقد ذهب بعضهم الى حد تصور ـ باسم فتوحات محمد علي واسماعيل ـ ان السيادة المصرية هي الاصل وان بريطانيا يجب ان تخرج .. وتترك السودان لمصر !

وكان موقفا غريبا ومضحكا. هؤلاء الذين لا يستطيعون امتلاك حرية بلدهم ، يريدون ان يكونوا مستعمرين لبلد اخر !

وهكذا ، في كل مفاوضات كانت بريطانيا الاستعمارية تضع موضوع السودان كالعقدة في المنشار .. وتجعل المفاوض المصري هو الذي يرفض في النهاية الوصول الى نتائج .. لانه كان يعلق اي اتفاق على تأكيد السيطرة المصرية على السودان ..

لكن ذلك المفاوض، الممثل للحلف البرجوازي الاقطاعي صاحب الاطماع الخاصة في مصر والسودان على السواء ... كان ، تحت شعارات مثل :« تقطع يدي ولا يقطع السودان » ، يعطى لبريطانيا فرصة البقاء في مصر والسودان معا ..

ثم جاءت ثورة يوليو .. وادركت ان قضية الحرية واحدة .. وان من يدافع عن حريته لا بد وان يدافع عن حرية الاخرين .. فهذا هو الموقف المبدئي الوحيد . فقدمت مذكرة لبريطانيا ـ نوفمبر ١٩٥٢ ـ تطالبها فيها بحسم الموقف بالنسبة للسودان ... **بان يكون للشعب السوداني نفسه حق تقرير مصيره على النحو الذي يريد.** واسقط في يد بريطانيا ، فوافقت . وانتهت مشكلة السودان تماما بتوقيع اتفاقية ١٢ فبراير ١٩٥٣ .. واصبحت القضية واضحة بين مصر وبريطانيا : الجلاء عن مصر فورا .. وبالكامل .

★ والنضال ضد الاستعمار ليس مجرد نشاط من اجل التحرر من وجوده العسكري او قوات احتلاله .. انما هو نضال ضد كل مظاهر وجوده الاقتصادية والفكرية وقبلها السياسية .. .كما انه نضال ضد كل نظام الامبريالية كنظام عالمي استغلالي .. وليس هناك انخداع في نواياه تجاه الشعوب :

«الانجليز يعرفون تماما ان تقوية المواطن المصري فيها اضعاف لقوتهم ونفوذهم في هذا البلد ، انهم يدعون امام العالم بانهم يعملون على رفع مستوى الحياة في الامم التي يحتلون ارضها ، وهذا منطق يستحيل فهمه ولا يمكن ان يتفق مع العقل في قليل او كثير .. « وهذا هو **العالم الحر** ايضا يعلن بابواقه انه يساعد الشعوب الصغيرة على تقرير مصيرها واختيار الحكم الذي تراه ، وانه يساعد الامم المتخلفة على ان تنهض ..

« هذا كلام اعتبره المادة المعروفة بـ « الافيون » يصدره عالم الغرب لتخدير الشعوب المستعبدة لكي تنام، ويظل هذا العالم الحر مسيطرا عليها حتى لا تقوى وحتى لا تقف في وجهه وحتى لا تسعى الى التخلص منه ..

« انهم يعتبروننا اسواقا لترويج منتجاتهم ، وانهم لينهبون ويسرقون ويقدمونها لاهليهم ولابنائهم ،ويعطوننا بدلا منها وعودا خلابة ، وكلاما كله ضلال وتضليل..

« **واليكم امريكا مثلا** : ان كل الصحف تقول انها ستعطينا قروضا . ستساعدنا على تنفيذ مشروعاتنا الانتاجية . انها تعمل على رفع المستوى الصحي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي في الامم التي تحتاج الى ذلك ..

« وها نحن اولاء بعد اربعة عشر شهرا من قيام الثورة لم نر شيئا ، ولم نصدق شيئا ، فانها كلها وعود وكلها خداع ، وكلها بهتان » ..

ـ من خطاب بمنيا القمح ـ ٢٠ نوفمبر ١٩٥٣ ـ

وهي كلمات واضحة ، يهمنا منها ان نركز على بعض النقط التي اثارت جدلا طويلا :

ـ فهي تكشف بجلاء عن ادراك عميق ومبكر لطبيعة المعركة ضد الاستعمار باعتبارها معركة شاملة ، ضد المعسكر الاستعماري كله . . « بريطانيا » ـ العدو المباشر عندئذ ـ و« **الغرب** » ، و« **العالم الحر** » ، و« **اميركا** » ..

ـ وهي تبين ان موقف الناصرية من الولايات المتحدة على وجه التحديد ليس جديدا .. كما ان **ليس متماشيا او مخدوعا** كما اشيع في فترة من حياة الثورة المصرية .. وانما هو موقف مضمر اعلن عنه في هذه الكلمات المبكرة ، ثم لم يلبث ان تطور مع تطور العلاقات والصدامات ..

ـ كما انها تثبت حقيقة هامة كثيرا ما اختلف حولها وهي : هل صدرت مواقف عبدالناصر من الاستعمار **كردود افعال** ترد على نشاط الاستعمار ، ام عن **موقف اصيل مسبق** .. نابع من وعي بالمعركة ، وتخطيط لابعادها .. فكلمات عبدالناصر الاولى تؤكد ان الخط المعادي للاستعمار لم يكن مجرد ردود فعل ، وانما هو خط ثابت .. فقط هو يعبر عن نفسه بمواقف محددة وفق ظروف محددة ..

٢ ـ تم يجيء الحديث عن اتجاه السلوك الناصري في مواجهة الاستعمار ، او اسلوب العمل .

والحقيقة ان قيادة ثورة يوليو قد اتخذت لنفسها منذ البداية موقفا واضحا يتسم **بالمرونة والقوة .. بالصلابة في النضال ضد الاستعمار والاصرار على الدفاع عن مصالح الوطن ، لكن مع شيء من العملية ..**

ولقد كانت معركة هذه القيادة مع بريطانيا في اول عهد الثورة هي بداية النضال الفعلي ضد الاستعمار .. كما وهي ايضا المعركة النموذجية التي تعطي ابعاد السلوك الناصري في مواجهة الاستعمار .

فلقد اعلنت الثورة منذ البداية ان الهدف الاول لها ـ من بين الاهداف الستة التي اعلنت فجر ٢٣ يوليو ـ هو القضاء على الاستعمار . ثم لم يلبث جمال عبد الناصر ان حدد المسألة العملية المباشرة في هذا الشعار فقال في ١٥ ابريل ١٩٥٣ في معرض الرد على اللورد كيلرن السفير البريطاني الاسبق في مصر :« يجب ان تجلو القوات الاجنبية عن اراضينا جلاء كاملا ، وبدون اي قيد او شرط » .. وكان من قبل ـ ٢٣ فبراير ـ قد اعلن شعاره التاريخي : « على الاستعمار ان يحمل عصاه على كاهله ويرحل .. او يقاتل حتى الموت دفاعا عن بقائه » .

على ان عبدالناصر قبل ان يدخل في مفاوضات مع بريطانيا بشأن الجلاء ، ولم يرفض اسلوب المفاوضة في حد ذاته .. وقد اثار ذلك كلاما كثيرا : كيف يقدم ثوري ، يريد الجلاء الكامل ، على مفاوضة محتلي بلاده.؟ وكانت هذه معركة قديمة في مصر ، بين كل الاحزاب المصرية التي كانت لا ترفض التفاوض بل تتهافت عليه، وبين تيار اخر في مقدمة الحزب الوطني الذي رفع شعار « لا مفاوضة الا بعد الجلاء » ..

لم يرفض عبدالناصر المفاوضات من حيث المبدأ كما كان يفعل الحزب الوطني .. لكنه ايضا لم يدخلها متهافتا كما كان يفعل الساسة التقليديون .. ولكن دخلها وهو يؤكد ان لا مساومة على مبدأ الاستقلال الناجز .. وان كان يمكن البحث في التفاصيل ..

ثم .. عندما شعر ان البريطانيين يميعون المباحثات .. بادر الى قطع المفاوضات .. من جانب مصر ..

وعندئذ لجأ الى اسلوب الضغط العنيف : نشط حركة المقاومة المسلحة في منطقة القناة ، وبعث بضباطه الى هناك ينظمون حركة الفدائيين التي كانت موجودة من قبل ..

وتحت هذا الضغط الساخن اضطر الانجليز لان يطلبوا العودة الى المفاوضة ..

ومرة اخرى لم يرفض عبدالناصر .. وانما اكد اشتراطاته السابقة ..

هذا من حيث الشكل . اما من حيث المضمون ، فقد قبل عبدالناصر ان يوقع مع بريطانيا اتفاقية الجلاء في ١٩ اكتوبر ١٩٥٤ . وكانت الاتفاقية تنص على جلاء قوات الاحتلال خلال عشرين شهرا .. جلاء تاما . لكن ان يبقى لبريطانيا حق العودة الى القناة في اي وقت اذا تعرضت هي او احدى حليفاتها للخطر .. وذلك خلال ٧ سنوات من توقيع الاتفاقية ..

وقد ووجهت الاتفاقية بمعارضة واسعة بسبب هذه النقطة .. بل ذهب بعض المعارضين الى حد اعتبارها ربطا اوثق لبلادنا بالاستعمار واحلافه وليس ببريطانيا وحدها ..

واستغلت جماعة الاخوان المسلمين الموقف في تبرير اغتيال جمال عبدالناصر ـ حادث المنشية ١٦ اكتوبر ١٩٥٤ ـ

ومن حيث ظواهر الامور، كان موقف المعارضة يبدو منطقيا .. لكن مواقف جمال عبدالناصر على المدى الطويل اثبتت ان المسألة ليست بهذه البساطة . كما اوضحت في الوقت نفسه المنهج الناصري في معالجة الصراعات الكبرى . والنظرة البعيدة لجمال عبدالناصر في محاربة الاستعمار على وجه الخصوص ..

كان عبدالناصر يؤمن باستمرار بسياسة المراحل .. وكسب كل ما يمكن كسبه في كل منها ، ثم الانطلاق نحو المرحلة التالية لتحقيق كسب اخر سوف تتوفر الظروف لتحقيقه .. فالمهم الا تفقد القيادة الهدف او تساوم عليه .

وقد اعلن فعلا بعد توقيع اتفاقية الجلاء .. انها مجرد مرحلة .

وكانت خطة عبدالناصر تقوم على اساس ان وجود قوات احتلال للاستعمار هو ما يعطيه القوة المادية لعرقلة خطوات التحرير والثورة .. وكان همه الاكبر ان يتخلص

من هذه القوات لتصبح لديه حرية الحركة في تحقيق بقية المخطط ..

لكن ماذا وبريطانيا مصرة على ان تربط جلاءها بمثل هذا الشرط ، الذي عرضته مرة في صورة محالفة رباعية (تضم بريطانيا وفرنسا وتركيا الى جانب مصر) ومرة في صورة حلف للبحر الابيض .. ثم خففته امام اصرار الثورة الى حق العودة اذا تعرضت هي او تركيا للخطر.. وبمدة محددة هي ٧ سنوات ..؟

كان امام عبدالناصر اما ان يرفض ذلك الشرط ، ويدخل في صدام مسلح مع ٨٠،٠٠٠ جندي رابضين في القناة .. وطابور خامس من القوى الرجعية التي لا تزال لديها مصادر قوة كثيرة .. مع احتمالات ان تنهار الثورة نفسها .. واما ان يقبل هذا الشرط ، ويزيح كابوس الاحتلال ، ويكسب ارضا جديدة في الجبهة الداخلية .. ثم يتصرف في هذا الشرط .. ولديه امكانيات حقيقية لتجميده ..

وقد اخذ عبدالناصر بالثانية ..

وثارت المعارضة وهاجت .. لكن عبدالناصر صمد فقد كانت لديه خطة واضحة ..

على ان الاهم من ذلك هو الروح التي عالج بها عبدالناصر معركته الاولى الكبيرة مع الاستعمار . فمن الواضح ان قائد ثورة ٢٣ يوليو ، صاحب التاريخ الوطني القديم ، الذي عاش تجربة حرب فلسطين وتعمق في ابعادها ، والذي تأمل كثيرا في دراسة الظروف المحيطة ببلاده .. قد ادرك ان المعركة مع الاستعمار لن تكون جولة واحدة .. كما انها لن تحسم بسرعة .. ولن يكون وجهها الوحيد هو الوجه السياسي او العسكري .. بل ستكون ابعد من ذلك بكثير ..

ومن ثم فقد وطد العزم على معركة ذات نفس طويل .. هو في النهاية الثابت فيها .
ومضت الاحداث .

بعد جلاء قوات الاحتلال جاء التقدم بالثورة . وكان ابرز معالم التقدم هو تعزيز الاستقلال عسكريا واقتصاديا .. ولتعزيز الاستقلال عسكريا كان لا بد من بناء جيش وطني قوي ، وتسليحه .. اما تعزيز الاستقلال اقتصاديا واجتماعيا فكان معناه بناء قاعدة اقتصادية متينة ..

وبحث عبدالناصر عن السلاح عند المصادر التقليدية فرفضت وضغطت .. فاشترى السلاح من الاتحاد السوفياتي وتشيكوسلوفاكيا .. وفتح اول جسر قوي مع المعسكر الاشتراكي ..

ثم اراد ان يخطو على طريق تعزيز الاستقلال وتنميته خطوة اكبر فصمم على بناء السد العالي . وكانت المعركة الكبرى مع الامبريالية العالمية مجتمعة ..

وامم قناة السويس في ٢٦ يوليو ١٩٥٦ ..

ولم يكن تأميم قناة السويس مجرد رد على سحب عرض تمويل السد العالي من جانب الغرب .. كما لم يكن مجرد طريق للحصول على عائدها من الرسوم لتغطية بعض نفقات خطة التنمية .. ولكنه الى جانب كل ذلك وقبله كان تحقيقا لامل وطني قديم ظل يعتمل في ضمير جمال عبدالناصر ورفاقه منذ زمن طويل (ذكر جورج فوشيه في كتابه جمال عبدالناصر ورفاقه ان جمال عبدالناصر عندما كان يبحث عن حل لمشكلات المجتمع المصري استوقفه البرنامج الاجتماعي لحزب مصر الفتاة وبالذات نقطة تأميم قناة السويس . وكان يعتبر وجود هذه النقطة ميزة لذلك الحزب على غيره من الاحزاب القائمة ..) ، كما كان استجابة لمطلب شعبي رفعته القوى الوطنية والتقدمية قبل الثورة ..

على اي حال فقد رد الاستعمار على تأميم القناة ـ وعلى سياسة عبدالناصر الوطنية كلها ـ بالعدوان الثلاثي في ٢٩ اكتوبر ١٩٥٦ . وكان ذلك ايذانا بالقطيعة بين الثورة وبين بريطانيا وفرنسا ..

وانتهت اتفاقية الجلاء . فقد اصدرت الثورة قرارا في اول يناير ١٩٥٧ بالغائها اعتبارا من ٣١ اكتوبر ١٩٥٦ وهو اليوم الذي تدخلت فيه القوات البريطانية في العدوان ضد مصر ..

واعقب ذلك سلسلة من الاجراءات التصفوية للوجود الاستعماري البريطاني والفرنسي في البلاد ، كان من اهمها تمصير الشركات والبنوك البريطانية والفرنسية في مصر (١٥ يناير ١٩٥٧) ..

وماذا تفعل بريطانيا ، بعد ان جربت العدوان العسكري السافر ؟ هل يجدي بعد ذلك نص في اتفاقية يبيح لها « حق » العودة الى القناة بينما هي لم تستطع العودة بالقوة ؟

وهكذا اضطرت بريطانيا في ١٢ فبراير ١٩٥٧ لاعتبار اتفاقية الجلاء منتهية .

واصبحت المحصلة النهائية لاتفاقية ١٩٥٤ هي جلاء القوات البريطانية عن مصر بعد احتلال دام اكثر من ٧٠ سنة ، ولم تصبح قيدا على الحركة الوطنية ، ولا ربطا للبلاد بالاحلاف العسكرية .. وصارت ـ في التقييم الاخير ـ خطوة هامة على طريق النضال الصاعد والحازم ضد الاستعمار .

وهو امر تكرر كثيرا في المواقف الناصرية .. وربما يكون احدث استمرار له الموقف من مقترحات روجرز ..

وقد آثرت ان اطيل فيه بعض الشيء للاهمية

القصوى في فهم المنهج الناصري وراء مواقف عبدالناصر .. وهـو ما تحتاج القوى الوطنية العربية لاعادة النظر فيه بعمق .. حتى لا تتكرر المأساة !!

٣ ـ نستطيع ان نقول بـــدون ادنى مبالغة ان الناصريـة مثلت من بين التيـــارات الوطنيـة المعاصرة **تيار المعارك الكبرى** التي ترتبط في حركـــة متلاحقـة متصلـة .

★ خاضت المعارك الكبرى :

ـ معركة اجلاء جيوش الاحتلال البريطانية عـن مصر (١٩٥٣ ـ ٥٦)

ـ معركة كسر احتكار السلاح (١٩٥٥)

ـ معركة حلف بغداد (١٩٥٥)

ـ معركة الاستقلال الاقتصادي والتنمية (مـن تمصير الشركات المساهمة في٧ يونيو ١٩٥٥ الى تمصير الشركات والبنوك الانجليزية في ١٥ يناير ١٩٥٧ الـى تمصير بورصات الاوراق المالية في٢٩ يوليو ١٩٥٧ الى تمصير البنوك البلجيكية .. وتنفيذ خطط التنمية وبناء السـد العالـي .. الخ)

ـ معركة تأميم القناة (٢٦ يوليو ١٩٥٦)

ـ معركة التصدي للعدوان الثلاثـي (اكتوبر ـ ديسمبر ١٩٥٦)

ـ معركة الدفاع عن حقوق الشعب الفلسطيني ، ورفض وجود وتوسع القاعدة الاستعمارية الاستيطانية (اسرائيل) في المنطقة .. وهي معركة لا تزال مستمرة ..

ـ معركة النضال ضد كل القوى الموالية للاستعمار في المنطقـة العربيـة .

★ وتتميز معارك الناصريـة ضد الاستعمار ايضا بانها **معارك ذات طابع شامل** . فهـي لم تواجه استعمارا بعينه تخوض معه معركة ثم ينتهي الامر .. لكنها واجهت كل القوى الاستعمارية واحدة واحدة .. ومجتمعـة . خاضت المعركـة ضد بريطانيا من اجل تحرير مصر نفسها من احتلالها العسكري ، ومن اجل تحرير السودان ..ثم من اجل تحرير اليمن الشمالي والجنوبي .. وفي منطقة الخليـج . وخاضت المعركة ضد فرنسا من اجل تحرير الاقتصاد المصري ، ومن اجل الجزائر ايضا . وخاضت المعركة ضد الاستعمار البلجيكي عندما اشتعلت ازمـة الكونغـو .. وخاضت المعركـة ضد المانيا الغربية عندما انكشف دورهـا في العداء للحركات الوطنيـة وخاصة عندمـا ظهر تواطؤها مع اسرائيل في صفقات الاسلحة الخاصة .. وخاضت المعارك مع الولايات المتحدة بسبب السلاح . ثم بسبب ضغوطها الاقتصادية والسياسيـــة التي توجت بسحب عرض تمويل السد العالي ، ثم بسبب مشروع ايزنهاور لملء الفراغ بعد هزيمة بريطانيا وفرنسا في السويس ، ثم بسبب موقفها المتواطىء العدواني الى جانب اسرائيل قبل واثناء وبعد عدوان يونيو ١٩٦٧ .. ولا تزال المعركـة مع اميركا ، ذروة معارك الناصرية ضد الامبرياليـة العالميـة ـ مستمرة حتى الان ..

★ ولقد حـاربت الناصريـة الاستعمار **بكل اشكاله** .. سواء كـان احتلالا عسكريا ، او انقلابات تآمرية ، او احلافا ، او اعمالا عدوانية حربية،او ضغوطا اقتصادية ضد العالم الثالث .. النامـي .

وكان عبدالناصر ايجابيا الى اقصى حد في المبادرة الى دخول المعركة ضد الامبريالية في كل مكان .. ساهم بدور اساسي في كل مؤتمر للدفاع عن الشعوب ..وفي انشاء المنظمات المعادية للاستعمار : مؤتمـر التضامـن الاسيوي الافريقي ـ مؤتمرات عدم الانحياز ـ التضامن بيـن القارات الثلاث ..

لكن التاريخ يؤكد ان الناصرية لم تكتف ـ فـي نشاطها ضد الاستعمار ـ بمجرد العمل السياسي او اي عمل اخـر في مستواه .. وانما ـ **وهذه خاصيةناصرية صرفة** ـ قد قرنت موقفهـا السياسي دائما بموقف عملـي فريـد .

لقد تصدت قيادة ثورة يوليـو للاستعمار بكـل امكانياتها الماديـة والتي وصلت في كثير من الاحيان الى حد **استخدام القوات المسلحة** .

فتحت ثورة يوليو صدرها لكل المناضليـن ضـد الاستعمار ، سواء من العالم العربي ، او من افريقيـا . سمحت بفتح المكاتب ، وتقديـم العـون المالـي .. وساهمت في تدريب المتطوعين والمقاتلين ، وقـدمت البرامج الموجهـة ..

لكنها كثيرا ما خاضت المعركة المسلحة جنبا الـى جنب مـع المناضلين من اجل الحرية : مع ثوار الجزائر، والى جانب الثورة اليمنية في الشمال ، ومع ثـوار الجنوب ، والى جانب الحكومة الاتحادية في نيجيريا .. وارسلت بقواتها النظامية تتصدى للمؤامرات الاستعمارية في اليمـن والجزائر والعراق وليبيا وسوريا ..

ولعل هذا الموقف العملي الشجاع المقدام ، ومـا ترتب عليه من تضحيات ضخمة ، امتدت الى جبهـات كثيرة ، هـو ما أكد ـ الى جانب تأكيـد دور مصر التاريخي ـ الدور القيادي القومي والعالمي للناصرية ،وما حماه من تهجمات مناوئية ، سواء من الجبهة الاستعمارية، او مـن الاتجاهات الوطنية الفجة ، ضيقة الافق ،كثيرة الكـلام ، قليلة العمـل !

٤ ـ على ان اهم خاصية في الناصرية كتيار وطني هي ادراكها العميق ـ والمبكر ـ لقومية نضالها ضد الاستعمار . فلم تحصر قيادة ثورة يوليو نضالها ضد الاستعمار في قيود الحدود المحلية الضيقة .. وانما امتد بصرها عبر سيناء ـ على عكس القيادات الوطنية السابقة ـ لترى انها جزء من امة واحدة مزقها الاستعمار وجزأها داخل حدود مصطنعة .. ومن ثم فقد ادركت ان نضالها ضد الاستعمار هو نضال ضدالتجزئة والتمزق في العالم العربي .. نضال قومي وحدوي .

بهذا الادراك نظرت للاجهزة العربية الرسمية . وتجاوبت مع الحركات التحريرية في الجزائر ـ من اواخر عام ١٩٥٣ ـ وفي سوريا ،ثم العراق ، واليمن.. واخيرا السودان وليبيا ..

لقد تبنت ثورة يوليو كل الثورات العربيةواصبحت بالنسبة لها الثورة الام .. فرعتها وساعدتها ، بقدر ما كانت قدوة ومثلا لها ..

وهكذا تجاوبت الناصرية مع اعمق متطلبات النضال العربي المعاصر .. كنضال قومي يتطلع الى تحقيقالحرية والوحدة والاشتراكية .. للامة العربية بأسرها ..وليس لمصر وحدها .

وبذلك لم تبق الناصرية تيارا وطنيامزدهرافحسب، وانما قامت بدور القابلة التي ولدت على يديها ثورات عربية شقيقة . . لم تلبث ان تجاوبت في تياروحدوي قوي اعطى الحركة الوطنية العربية دفعات جديدة .. مجددة .

٥ ـ ولم تكن الناصرية لتصبح قوة جذب قومية وانسانية ـ هائلة الا لانها امتلكت بالفعل مقومات الحياة والتجدد والارتقاء ..

فلقد استمرت في تصاعد دائم لاكثر من ١٨عاما، وهي لا تزال .. بينما لم تستطع اي تيارات اخرىسابقة او معاصرة لها ان تكتسب هذه الخاصية ، وانتهت تماما كما هو الحال بالنسبة للتجربة الاتاتوركية في تركيا ،او انتكست انتكاسة مريرة كما حدث في تجربة الرئيس الاندونيسي احمد سوكارنو .. او تميعت وتعرضت لهزات عنيفة ادت الى انكماشها وانحسار دورها العالمي وهو ما لا تزال تعاني منه التجربة الهندية بعد نهرو ..

وفي اعتقادنا ان الناصرية اكتسبت هذه الامكانية لسببين جوهريين ـ بالاضافة الى كل ما سبق :

الاول : هو انها استطاعت ان تلحم بشكل جدلي وثوري بين النضال الوطني والاجتماعي ، كانت ضرباتها للاستعمار مصحوبة بضربات موازية لنفوذ الطبقات المالكة المحلية . وكانت اجراءاتها الوطنية ضد النفوذ الاجنبي مرادفة لاجراءات اجتماعية جذرية تضرب الاستغلال وتفتح المجال لتطوير المجتمع على طريق الاشتراكية ..

وليس غريبا ان تكون الناصرية فعلا هي صاحبة المعارك الكبرى ضد الاستعمار .. وصاحبة المعارك الكبرى على الجبهة الداخلية ضد القوى التقليدية محليا وعربيا .. وان تكون هي نفسها اكثر النظم التيظهرت في عالم ما بعد الحرب ـ خارج المعسكر الاشتراكي ـ التي أخذت بنظام التغيير الاجتماعي ..

وهكذا لم تصبح ثورة يوليو مثلا في مجال معاداة الاستعمار ـ وهو الجانب السلبى من القضية الوطنية ـ فحسب .. وانما صارت ايضا مثلا في معالجة قضايا الاستقلال والتنمية ، والهياكل السياسية التي تخدم الشعب ..

والثاني : هو أن الناصرية استطاعت ـ دون بقية التيارات الاخرى التي وقفت عند مستوى اقل ـ ان تقيم اوثق علاقة بينثورة وطنية ـ ذات اتجاه اشتراكي بعد ذلك ـ وبين المعسكر الاشتراكي .

لقد ادركت الناصرية ان النضال ضد الاستعمار نضال عالمي . وان هذا النضال انما تخوضه جبهة عالمية عريضة من كل القوى المعادية للامبريالية . وان القوتين البارزتين في الجبهة هما حركة التحرر الوطني والمعسكر الاشتراكي ..

ومن ثم فقد اقام عبدالناصر نموذجا رائعا من التعاون والاخوة مع المعسكر الاشتراكي وبصفة خاصة مع قيادة ذلك المعسكر متمثلة فيالاتحاد السوفياتي..

واحدث هذه العلاقة الجبهة المعادية للامبريالية بقوة هائلة .. كما حمت الناصرية في مواقف كثيرة من الهجمات الشريرة للامبريالية .. وعززت فيالوقت نفسه دور الاتحاد السوفياتي العالمي ..

وكان ذلك كله لصالح الثورة العالمية .. اسهمت فيه الناصرية بنصيب عظيم .. كما استفادت منه في مواصلة نضالها .

القاهرة — **جمال الشرقاوي**